

جمالية الحيّز المكاني في رواية وشيء آخر لعبد الملك مرتاض

الأستاذة الدكتورة: راضية بن عريبة
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:

المكان بخصوصيته يثير ذكريات لا حدود لها، فهو لا ينحصر على مكوناته كمادة من أحجار وتراب و أبعاد، بل يعدّ أكثر من ذلك لأنه وبكل بساطة من أهم العناصر المكوّنة لهوية الفرد، إذ لا نجد شخصية لم يكن للمكان أثر فيها، إضافة إلى الشعور الكليّ به حيث يبدو لنا لوحة فنية تجذبنا وترصي في النفس الراحة والطمأنينة، فحقيقة المكان يساعد في العمل الإبداعي وخصوصا فن الرواية .
و فقد أبدع الكاتب الجزائري عبد الملك مرتاض في توظيف المكان، حيث أصبح طرفا فعالا في روايته المميّزة -وشيء آخر- ليتجاوز المستوى الذهني إلى المستوى التخيلي بكل أبعاده السيميائية .
وليتحول هذا العمل الإبداعي بحيزه إلى عمل سينمائي يُسقط خفاياه الجمالية على الصورة المرئية، بفسيفساء رُسمت أبعادها بمقاييس فنية روائية عالمية بامتياز .
الكلمات المفتاحية: المكان –الحيّز –الرواية –السينما الجزائرية – عبد الملك مرتاض .

يمثل المكان في الرواية، عنصرا مهما من عناصر السرد الروائي، ليس لأنه الفضاء الأفقي للنص فقط، حيث تدور الأحداث، ويتحرك الأبطال في دوائر متقاطعة، وتتضح معالم شخصياتهم وتنمو وتتحوّل، بل لأن المكان في كل أبعاده الواقعية والمتخيلة يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الزمني والتاريخي للنص وشخصه، بحيث ينتج عن التفاعل (الزمني- المكاني) منظومة سردية تنتظم في الشكل الروائي الذي تم اختياره لتقديم الأحداث والأشخاص، وتفاعلاتهم النفسية والحركية مع المكان.¹
ملخص الرواية:

يعيش الروائي تجربة الزمن من حيث هو وعاء وجودي، يفصح عن الرؤية التاريخية للكاتب، وعن رؤيته للإنسان.²

وقد افتتح مرتاض روايته بمقارنة فارقة بين قطارين، أحدهما سريع عصري، والثاني بطيء متخلّف، وكأنه يحاول أن يضع مفارقة، يحدها سيف الزمن والتطور والتكنولوجيا بين عالمين : المتحضر الغربي والمتخلف الشرقي .

ثمّ ينتقل إلى وصف قرية الزيتونة العليا، ذلك المكان الساحر الذي تربت بين حقوله الجميلة بطلّة الرواية الفاتنة "سارة الخلوّفية"، قرية قسمها الأعلى لبني البشر والأسفل للجن، وكانت تجمعهم بئر واحدة يسقون الماء منها البشر نهارا والجن ليلا، ولا أحد يعلم تاريخ البئر ولا كيف طويت ؟
وبعد وصف المعالم المكانية للقرية كالزيتونة العليا، والزيتونة السفلى، والوادي، والمقابر المجاورة والبيوت الشبه المهذّمة والقديمة، والبساتين الخضراء، يذهب بنا إلى حكاية عشق أزلي بين "سارة" وزوجها

"عمر" الذي سافر لسبع سنين طويلا، رغبة في تحقيق حياة رغدة وطلب رزق وافروكرامة عيش لسارة، التي لم ترفضه فقيرا في بيت سقفه من حديد وركنه من حجروبابه من لوح هش، ينكسر بمجرد هبة ربح خفيفة .

تعرفت "سارة" إلى ملكة الجن "خناتيتوس" التي خانها زوجها الملك مع إحدى قريبتها ليطلقها ويتزوج الجنية الصبية الحسناء مقابل أن تحتفظ "خناتيتوس" بلقب الملكة وبكل امتيازاتها في عرش الجن مدينة الشخصضار.

وربما غياب الزوج الأنيس السند هو من وحد العلاقة الأخوية بين "سارة" و"خناتيتوس"، حتى أصبحت كل واحدة منهما تحاول أن تملأ فراغ الأخرى "سارة" بعطفها و"خنا تيوس" بمالها وعلمها وجاهها، وما وهبته لسارة من ذهب وفضة وملابس ملكية فاخرة .. ولا أحد يعلم هذا السر بين خناتيتوس وسارة الخلفية، مما كثرت الأقاويل حول "سارة" حتى أنها طُعن في شرفها على لسان "زعرور" الفتى الذي هام حبا بها وهي رافضة له فكانت تزداد جمالا على جمال كل يوم، لأنها تدرك أن جمال المرأة في ابتعادها، وكان كلما دبر لها "زعرور" المكائد إلا وكانت له خناتيتوس وخدمها بالمرصاد.

يعود "عمر" -زوج سارة- وتغيب "خناتيتوس" - ملكة الجن - في مشهد حميمي في ليلة شتوية ممطرة تصادف تاريخ ليلة زفاف "سارة" و"عمر" بعد أن عثر الجن عليه وأحضره على بساط بأمر من ملكة الجن بعد سبع سنين فروى لمعشوقته -سارة- عناءه واشتياقه لها في المملكتين الصفاء والشقاء. وأنه لم يخنها يوما ولم ينسها ...

وراحت هي الأخرى تروي له علاقتها مع خناتيتوس وسعادتها معها .

بعد هذا المشهد الحزين والمفرح معا، قرّر الزوجان بداية حياة جديدة، فنجح "عمر" في مشروعه الفلاحي والتجاري بمساعدة "سارة"، فانقلبت حياتهما من الفقر إلى الغنى، ومن البيت البسيط إلى المنزل الفاخر، ويرزقا بـ"كريم" و"رميم".

تمرّ الأيام وتلمها الشهور والسنوات، ليكبر "كريم" ويكمل دراسته الجامعية في أوروبا بواسطة المنحة إلى الخارج، والتي كرمها بها مشايخ الزيتونة العليا لتفوقه في الدراسة، أين تعرف هناك على متن القطار على فانتته "كاترين" ليعشقا من أول نظرة ويطلب يدها من ثاني لقاء من أمها "جنين" المريضة.

تسافر "كاترين" إلى الجزائر في زيارة لتتعرف على عائلة "كريم" التي أحببتها وضمته كفرد منها، فتقيم معهم شهرا لتحضر زفاف "رميم" فتقف منبهة أمام عادات وتقاليد المنطقة وسكانها .

تعود "كاترين" إلى فرنسا ثم تسافر إلى أمريكا لنيويورك لتحضر زفاف ابنة خالتها "سوزان" أين تموت تحت أنقاض الجسر.... لتنتهي الحكاية كما ابتدأت بوصف جمال امرأة وموت امرأة جميلة .

الحيز المكاني في رواية وشيء آخر لعبد الملك مرتاض :

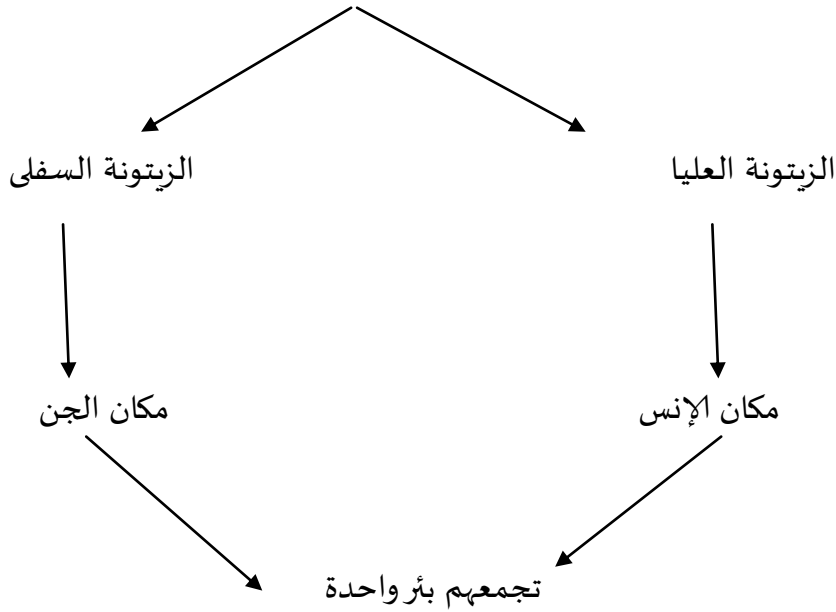
تتميز رواية «وشيء آخر» بكثرة وتنوع الأماكن المذكورة في الرواية، فنجدها في القرية، و المدينة...، تتقاطع في سرد البطل وذكريته. ويأخذ المكان أهميته في هذا النص من كونه يشكل محوريا في اختيارات بطلة الرواية "سارة الخلفية".

وينتظم الحيز المكاني في دائرتين رئيسيتين؛ الزيتونة السفلى والزيتونة العليا،

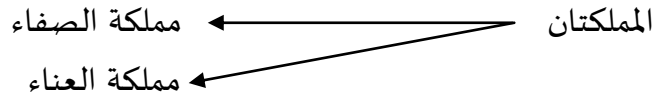
ويمكن وضع مخططات للأمكنة المتواردة في الرواية على الشكل الآتي :

المكان الأول : الزيتون قرية طبيعية جميلة .

الزيتونة



المكان الثاني: الممالك المجاورة لقرية الزيتون والتي رحل إليها عمر طالبا الرزق والأمل في عيش كريم .



المكان الثالث: الفضاء المكاني لسارة وقد تمثل في :

أ / منزلها البسيط

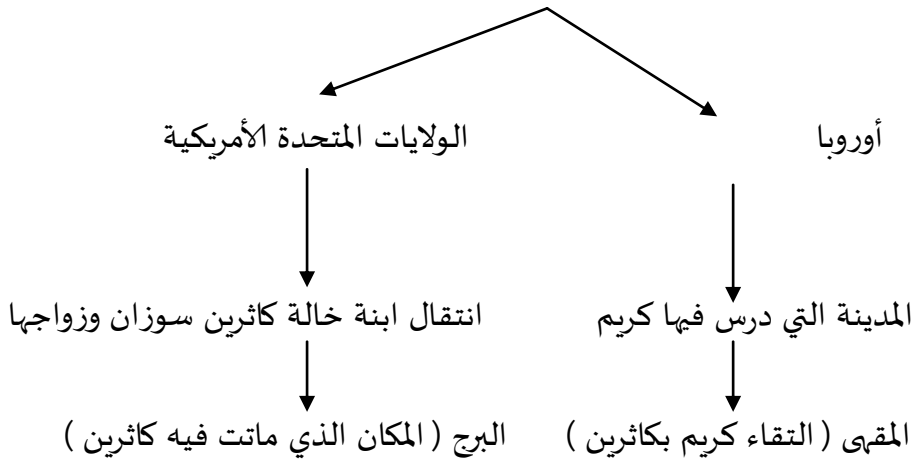
ب/ حقلها الصغير الذي كانت تقطت منه .

المكان الرابع: الفضاء المكاني لمملكة الجن :

مملكة كبيرة تحت الأرض ← قصور وأنهار وطبيعة خاصة بالجان .

المكان الخامس: المدن الغربية

المدن الغربية



صورة المبدع الجزائري عبد الملك مرتاض حاملا روايته "وشيء آخر"

الهوامش:

¹ - ينظر: دلالات المكان الروائي في ثلاث روايات عُمانية معاصرة رواية المرأة نموذجًا-على الرابط الإلكتروني <https://www.nizwa.com> بتاريخ: 2018/12/02 في الساعة 12:20

² - تحليل الخطاب الروائي، الزمن، الصيغة، التبثير - سعيد يقطين- منشورات المركز الثقافي العربي- بيروت- لبنان - ط 3- 1997. ص: 64